

# أوهام ومؤامرات

## مؤيدو التقسيم ينجاهلون عظات التاريخ العراقي

لا ريدر فيسر \*

يساهم عدد من السياسيين الأمريكيين في الجدل حول مستقبل العراق بحملة دعائية تدعو إلى تقسيم العراق إلى ثلاث دويلات شبه مستقلة ضمن اتحاد فدرالي، وهم يسمون هذا التقسيم باسماء متعددة منها تسمية (التقسيم الهين اللين) أو (التقسيم المتدرج المبرمج) أو (امتداد المبدأ الفدرالي إلى الطائفة السنية) وما شابه ذلك من اللينيات التي ياملون منها ان تسهل ابتلاع هذا الطعم على العراقيين.

هذه المشاريع على اختلاف اسمائها متشابهة جداً واصحابها لا يكلون ولا يملون في الدعوة اليها. وهم ينطلقون من مبدأ ان العراق «كيان مصطنع» وان الامر الطبيعي والسليم (من وجهة نظرهم) هو ان يذهب كل جزء من الكيانات الثلاثة (الشيعة العرب، والسنة العرب، والاكرد) في سبيل حاله.

لكن الحقيقة هي ان تاريخ العراق يدحض هذه الافكار. وعلى الاخص فكرة وجود ضرورة لاقامة حواجز بين السنة والشيعة العرب. فلو جشم دعاء هذه الفكرة انفسهم عناء النظر في الوضع الذي حصل فعلاً عندما اصطدمت القوى التي كانت متنافسة في جنوب العراق في العشرينات من القرن الماضي، لوجدوا ان «الاقليمية» لا «الطائفية» كانت تاريخياً المناس الرئيسية للوطنية العراقية في جنوب بغداد، وان هذا المناس الرئيسي (اي الاقليمية) كان هو نفسه هزياً وضعيفاً.

ان فكرة التقسيم الثلاثي لا تجد الا انسجاماً ضئيلاً مع تاريخ القطر العراقي. فليست في سجلات تاريخ العراق اصطلاحات اصيلة كعبارات (شعبة ستان) و(سنة ستان). فهي موجودة فقط في اذهان دعاة التقسيم الاجانب الذين تستند حججهم إلى مقارنات غير واردة مع التجارب السياسية الأوروبية.

### سابقة البصرة

في العشرينيات من القرن الماضي (اي اثر الاحتلال البريطاني للعراق في اعقاب الحرب العالمية الاولى) ظهرت محاولة لفصل الجنوب عن بغداد. وقد جرت تلك المحاولة بعد فترة قصيرة من قيام الإنكليز بفرض انتدابهم على المحافظات العثمانية السابقة في البصرة وبغداد والموصل وتبعتها لتؤلف دولة وحدوية. لكن تشكيلة الشخصيات الانفصالية في الجنوب في تلك الفترة كانت غير تشكيلة هذه الايام وكان النطاق الجغرافي لمشروعهم غير النطاق الذي طرحه الانفصاليون حالياً.

لم يكن رجالات العشرينيات من القرن الماضي من الشيعة خاضعين للملاي الذين همهم هو انشاء دويلة شيعية في العراق، بل كانوا جماعة من التجار يريدون فقط انشاء موقع تجاري على ضفاف شط العرب تحت الحماية البريطانية ليتاجروا مع بلدان الخليج ومدائن الدلتا العراقية الواقعة ما بين النهريين شمال القرنة.

وكانت تشكيلة ذلك القطاع مختلطة. ان جمعت عرباً وعجماً وهنوداً ويهوداً لإنشاء دويلة في البصرة، وكان عرب من السنة الجنديين هم قادة هذه الحركة. وكانت اغلبية الشيعة تقيم في بغداد التي كانت واسعة الاجراء في العهد العثماني لا في البصرة كما يظن انفصاليو زماننا هذا. فباستثناء حفنة من الشخصيات الانفصالية الذين كانوا مقيمين في البصرة، كان اغلب الشيعة يقيمون في بغداد وضواحيها.

ومع ان الانفصاليين كانوا حينذاك اغنى سكان البصرة، ان كانوا يملكون كروم وتمر ونخيل واسعة وناجحين في تجارتهم التي امتدت إلى انحاء اخرى من العالم، فانهم قد عجزوا عن حشد التأييد الشعبي لخطتهم الانفصالية الجريفة.

من هو الذي احبط مخططهم؟ لقد كان العدو الاول لهؤلاء الانفصاليين هو النظام الصارم الذي كان قائماً في بغداد وله قوة عسكرية كافية لتحقيق مخططه لتثبيت الهوية الوطنية العراقية. هل كانت الالة الاستعمارية البريطانية المصممة على البقاء في العراق قادرة على منع قيام دولة عراقية موحدة؟ لا. انها لم تستطع ذلك. فالجهاز الحكومي البريطاني الذي اقيم في بغداد في العشرينيات من القرن الماضي كان ضعيفاً إلى درجة ان فكرة الانسحاب من العاصمة والتفكير إلى البصرة ظلت تراود افكار البريطانيين من حين إلى حين كلما اشتدت عليهم ضغوط الوطنيين العراقيين. فهاتان القوتان (القوة الانفصالية في الجنوب وقوة الامبراطورية البريطانية) فشلتا في تحقيق المشروع الانفصالي لأن اغلبية العراقيين كانوا متمسكين بالوحدة.

وفي ذات الوقت كان شبان البصرة الفقراء الذين لا يملكون مالا ولا ارضاً مصممين على احباط المشروع الانفصالي (الذي كان رواده التجار الاغنياء) لانهم فضلوا عليه بدلاً يعبر عن مطامحهم المستقبلية المختلفة عن مطامح اولئك التجار. وقد كان معظم هؤلاء من موظفي الدولة السابقين في اواخر العهد العثماني وكان لهم رفاق من



لا سنة ولا شيعة... عراقيون فقط

عينتهم في المناطق الشمالية. وتفتت الوثائق العثمانية بما لا شك فيه ان هؤلاء الموظفين السابقين كانوا يطلقون على المناطق الواقعة بين البصرة وسامراء (وحتى الموصل أحياناً) تسمية (العراق)، قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى بمدّة طويلة وذلك على عكس الفكرة الشائعة الآن التي لا يوجد لها اساس من الصحة بانه لم تكن هناك صلة بين البصرة وبغداد قبل مجيء الإنكليز.

هؤلاء الشبان المثقفون الذين آمنوا بوحدة العراق، حولوا الجنوب في مرحلة باكراً إلى جزء من تلك الوحدة. واستعانوا على تحقيق ذلك بالصحف والمدارس والجمعيات الأهلية التي تشكلت طوعياً وليس اجبارياً. وكانت هذه الخطوات الوطنية اوسع انتشاراً في جنوب العراق من شماله. وحتى في المناطق الكردية كانت هناك اختلافات بين منطقة واخرى حول علاقاتها مع بغداد. ويشهد التاريخ بان مدينة السليمانية في شمال العراق كانت البلد الوحيد الذي ظل معادياً دائماً للعاصمة العراقية.

### حقائق اوضاع العراق

هذه الازدواجية - الاقليمية التجريبية الواهنة، والهوية الوطنية العراقية المتينة تشاهد حالياً في العراق. هنا أيضاً سيجد المتحمسون في الدول الغربية لتقسيم العراق اذا كلفوا انفسهم وهم في مقاعدهم الوثيرة عناء تحليل سياسة الانفصاليين الشيعة، ان هناك بوناً شاسعاً بين خريبتهم وبين حقيقة الامور في العراق.

فعلى عكس الظنون الشائعة لدى الغربيين، كان التحدي الجنوبي للدولة العراقية الموحدة منذ نهاية الحرب العالمية

عندما يستجوبهم صحافيون غربيون ويصرون على انهم فقط عراقيون. وبالطبع يتضايق اولئك الصحافيون من هذا الجواب لانهم يتوقعون ان يحصلوا على اجوبة محددة بالهويات الطائفية.

وهذا الوضع هو ذاته الامير الشائع بين العديد من كبار الزعماء العراقيين الذين لم يخرجوا قط إلى المنافي. فعبارة (الفدرالية) غير موجودة في قاموس آية الله العظمى علي السيستاني الذي يؤكد دائماً في تصريحاته الرسمية على وجوب التمسك بالوحدة. كذلك يؤيد مقتدى الصدر خطاً قومياً قوياً يتجاهله الاجانب احياناً لأنه شعبي.

وخلاصة الامر هي ان مشروع التشرذم الاقليمي في العراق مازال مجرد فكرة سقيمة وقابلة للخذ والرد أكثر مما يحاول واضعو الخرائط الكاريكاتورية في الغرب ان يصوروه. لكن مشاريع التقسيم، وان كانت غير منسجمة مع تاريخ العراق، نذل بوضوح على احتقار واستهتار اصحابها بالمنهج الديمقراطي الهش الذي يديء بتطبيقه في العراق. وهذا امر مستغرب لان كثيراً من المنادين بالتقسيم يتفاخرون بانهم «اعداء الداء» لجمع اشكال الاستعمار الجديد.

وقد كان موظفو الاستعمار البريطاني اصحاب ذوق وادب عندما رسموا خطوط الحدود اذ وضعوها في مناطق صحراوية خالية من السكان او غير ماهرة بشكل كئيف. اما هواة رسم الخرائط هذه الايام فانهم لا يتورعون عن تشطير اكثف المناطق سكاناً بدون مراعاة لأهلها. فهم على ما يبدو، لا يفهمون ان دعوتهم لتقسيم العراق إلى ثلاثة اقسام كل منها قائمة بذاتها ولا صلة لها بالأخرين، هي دعوة هدامة تناقض المبادئ والاهداف الديمقراطية.

### الغرب اعمى

هناك خيار افضل للغربيين الراغبين بالدخول في مناقشة حول هذه المواضيع (التي هي اولاً واخيراً قضية وطنية عراقية). وهو ان ياخذوا بعين الاعتبار القواعد الدستورية المطبقة حالياً والتي قد يستعان بها في رسم حدود للوحدات الفدرالية اذا تطلب الامر ذلك، وعليهم ان يدخلوا تدريجياً إلى صلب الموضوع لأن من المتوقع ان تظهر مشاكل في قضية العراق المعقدة من جراء عدم وجود حدود واضحة المعالم بين مناطق الطوائف.

وتقول المادة 115 من الدستور العراقي ان على المناطق الراغبة بنيل هوية فدرالية ان تجري استفتاءات في تلك المناطق. ولكن ماذا سيحصل اذا ظهرت عدة مناهج متضاربة كما يتوقع من بلد ذي تاريخ معقد منذ القدم؛ وماذا سيحصل اذا ارادت البصرة التي توجد فيها مصافي نفط ان تشق لوحدها بينما تريد مقاطعة ذي قار المجاورة ان تدخل في اتحاد فدرالي مع الشقيق الاكبر؟.. او اذا قررت مقاطعة النجف التي لا يوجد لديها نفط ان تستغل المذهب الشيعي كإيديولوجية سياسية لتحقيق سيطرتها على هاتين المقاطعتين (البصرة وذي قار)؟

وماذا سينجم عن سهولة المتطلبات لإجراء الاستفتاءات اذا اخذت بضع مجالس بلدية قليلة السكان، تتحدى الحدود الادارية القائمة حالياً وأجرت استفتاءات لتعديلها وربما استفتاءات مضادة لنتائج الاستفتاءات السابقة؟

وماذا سيحدث اذا فشل اي استفتاء في كسب تأييد الاغلبية للانفصال وانحصرت فيه الدعوة إلى التمسك بالوحدة العراقية؟ هل سيجري استفتاء آخر لالغاء دولة الوحدة بالرغم من ان مؤيديها يشكلون الاغلبية؟

ان الحياة السياسية في العراق ستتدهور اذا لم توضع ضوابط تحول دون التردى إلى وضع فوضوي، وسيعاني القطر العراقي من مسلسل لا نهاية له من الاستفتاءات. وسيبحث السياسيون خلالها عن حلول سهلة وعقيمة لمشاكل معقدة تستعصي على الحل. فعلى واضعي الدستور العراقي او مفسريه ان يجدوا اجوبة واضحة لهذه القضايا وغيرها.. وعلى الاجانب المهتمين بعملية التحول في العراق ان يبذلوا جهودهم للمساهمة في النقاش المثمر بدلاً من فرض افكارهم غير الديمقراطية بالقوة على العراق الذي تعایش سكانه بوئام على مر القرون الطوال.

ان اجراء التقسيم بسرعة على اسس مذهبية وطائفية سيجلب الشقاق ويهدم الوفاق فيجب على العراقيين الا يرضخوا لأولئك الاجانب الذين يحاولون منذ ثلاث سنوات ان ينسفوا النسيج الاجتماعي العراقي المتين.

فالخرائط السفهية التي يعرضون تقسيم العراق بموجبها تعنبر اهانته لخبرات وتضارب العراقيين الذين يدعي هؤلاء الاغراب انهم يمثلونهم. فغاية هؤلاء الاجانب هي الاستيلاء على عملية التحول في العراق.

\* باحث في المعهد النرويجي للشؤون الدولية. وقد نال دكتوراه في دراسات الشرق الاوسط من جامعة اكسفورد. وهو مؤلف كتاب (البصرة - دويلة الخليج الفاشلة: الانفصالية والقومية في جنوب العراق) (مطبعة فيرلاغ سنة 2005) وهو اول دراسة عن حالة انفصالية محددة جرت في العراق خلال القرن الماضي. وتوجد لفيسر ابحاث كثيرة عن قضايا الفدرالية والحكم الذاتي والامركزية في جنوب العراق على موقع: [historiae.org](http://historiae.org)

□□ هذه الازدواجية - الاقليمية التجريبية الواهنة، والهوية الوطنية

العراقية المنبئة تشاهد حالياً في العراق. هنا أيضاً سيجد المتحمسون

في الدول الغربية لتقسيم العراق اذا كلفوا انفسهم وهم في مقاعدهم الوثيرة

عناء تحليل سياسة الانفصاليين الشيعة، ان هناك بوناً شاسعاً

بين خريبتهم وبين حقيقة الامور في العراق □□